ليش اعتقلتني؟

ليش
اعتقلتني؟

اسمي أحمد محمود الحويلي. نحن في الأصل من دير الزور لكننا لا نملك شيئاً هناك فجدّنا كان فقيراً. والدي رحمه الله كان عسكرياً متقاعداً. كنا نسكن دمشق منذ أكثر من خمسين عاماً. في حي التضامن الذي كان حيّاً معروفاً، عدد سكانه حوالي المائتي ألف نسمة من الطبقة الشعبية الفقيرة؛ موظفين، وعمال، وعمال بناء. عشت طفولتي مع أبي وأمي وإخوتي؛ نحن عشرة أبناء؛ خمس بنات وخمسة شبان. كنا نعيش في بيت واحد إلى أن تزوجنا. وكان والدي أقرب شخص لي.

كان عندنا الكثير من الأصدقاء والأقارب الذين يسكنون الحي نفسه. نتعامل مع الناس بشكل جيد وهم يعاملوننا جيداً ونزور بعضنا دائماً. كان الكل يحب والدي ويحترمه. عائلتنا بسيطة ومسالمة. لم تكن عندنا أي مشاكل ولم نعرف المخافر يوماً. كان والدي يعاملنا مثل الإخوة. لم نسمع منه، أنا أو إخوتي، كلمة سيئة يوماً. كان دائماً يعلمنا الأصول والمبادئ وكيف نتعامل مع الناس بأخلاق وكيف نتسامح معهم. حتى لو اعتدى علينا أحد الجيران مثلاً، بسبب أو دون سبب؛ كان والدي يضربنا لو لم نكن مخطئين. علّمنا أن لا نحقد على أحد وأن لا تكون عندنا مشاكل مع أحد.

كنا سعداء رغم فقرنا ولم نكن محرومين من شيء. نستقبل الضيف ونرحب به؛ كان ضيوفنا أحياناً يأتون من محافظات أخرى كدير الزور والحسكة والرقة، استقبلناهم لأيام وأسابيع. منهم من أتى إلى الطبيب، منهم العسكري، منهم من كان مسافراً إلى دولة أخرى، ومن كانت لديه أوراق أو معاملات في الشام ويأتي ليشتغلها. كنا نستقبل الجميع بترحيب. حتى اليوم معارفنا يحترموننا ويقدرونا بسبب تعاملنا معهم.
درست حتى الصف التاسع. لم أكمل تعليمي لأسباب عادية. أتمنى لو ترجع تلك الأيام وأعود إلى المدرسة، لكن ما حدث قد حدث. ما زلت حتى اليوم كلما ذهبت أطلب عملاً يسألوني عن شهادتي الجامعية وأنا للأسف لم أصل إلى الجامعة. إخوتي الأكبر أيضاً وصلوا للمستوى نفسه. لم نكمل مع أننا كنا جيدين في المدرسة. بعدها، عند وقوع الأحداث، لم يكمل أخوتي الأصغر تعليمهم بسبب الأحداث.

بما أن المنطقة التي كنت أعيش فيها شعبية، وأغلب سكانها يعملون بالبناء والتعمير والبلوك والإسمنت؛ عملت في هذه الأعمال الشاقة منذ أن تركت المدرسة. كنت سعيداً رغم كل التعب. تعرضت لأكثر من إصابة في العمل نفسه؛ مثلاً تنكسر بنا السقالة، أو تسقط بلوكة على رأسي، أو أصاب بجروح وأذهب إلى المشفى، وأعود بعدها إلى عملي. كنت أحب عملي كثيراً رغم أنه كان ممنوعاً في الشام بسبب النظام. عملت في البناء لسنين طويلة، وتوظفت بعدها حارس حديقة في محافظة دمشق وتنقلت في أكثر من مكان؛ حديقة المزة وحديقة الجلاء، عملت في منصّف أوتوستراد المزة مدة طويلة، وبعد ذلك صرت حارس حديقة أبو أيوب الأنصاري. مع وظيفتي عملت في البناء أيضاً.

بدأت الأحداث في حي التضامن في عام 2012 تقريباً. خرجت بضع مظاهرات وقتل البعض من الأطفال ومن الشباب الذين خرجوا ضد الظلم. أخواي الشابان كانا يخرجان في المظاهرات لكن أبي كان يمنعهم لأننا أناس مسالمون، لم يكن مؤيداً للنظام لكنه كان يخاف علينا فيمنعنا من الخروج للتظاهر. كنت موظفاً وخلال وظيفتي كانوا يطلبون مني الخروج ضد المتظاهرين، لكن الحمد لله لم أضرب متظاهراً. شاهدت عدة مرات كيف كانوا يعذبون الناس لكني لم أضرب حجراً واحداً. كانوا يطلبون منا الذهاب إلى مظاهرات يوم الجمعة؛ في منطقة الحجر الأسود، في القدم، في جامع الرفاعي عند دوار كفر سوسة. كنت موجوداً في ليلة القدر عندما اقتحموا الجامع والحمد لله لم أضرب أحداً، لكنني رأيت كيف عذبوا الناس وضربوهم، وكيف تواسط الشيخ أسامة الرفاعي للبعض كي يتركوهم. ذهبت أيضاً إلى دُمّر وداريا ولم أضرب أي حجر تجاه أي متظاهر. كنت أعرف أن هذا شيء خاطئ، لكنني كنت مجبراً على الذهاب معهم. كانوا يعطوننا خمسين ليرة عن كل مرة نخرج بها، يعني سعر سندويشة مثلاً أو علبة عصير. أتذكر حتى اليوم كيف اعتقلوا أشخاصاً ووضعوهم في مركز للتموين بجانب أمن الدولة وبجانب المديرية التي كنت أعمل بها في دوار كفر سوسة. هو مجمع خدمات لمحافظة دمشق وفيه مديرية الصيانة ومديرية النظافة ومديرية تنظيم السير ومديرية الحدائق وجميع الأفرع الخدمية التابعة للمحافظة. رأيت كيف ضربوا الناس الذين اعتقلوهم، ومنهم من ظلوا يضربونهم حتى الموت. كانوا يحتجزونهم في مبنى محافظة دمشق. محافظ دمشق بشر الصبان هو المسؤول الأول. ومدراء الأفرع كلهم مسؤولون؛ مدير الحدائق بشار بسطاطي، ومدير الصيانة، ومدير النظافة وكنيته جحا. كل من كانوا يعملون في الخدمات الفنية والخدمات التابعة لمحافظة دمشق كانوا مسؤولين عن هذه الانتهاكات.

كرهت مجيء يوم الجمعة؛ كنا نمضيه خائفين من صوت الرصاص. ما زلت أخاف صوت الرصاص حتى اليوم، وأتخيل رائحة الغاز المسيل للدموع وهي تدخل البيوت ونحن نختبئ في الطابق السفلي. كنا نمتلك محلات ممتلئة بكل أنواع الأدوات الصحية، وكنا نختبئ في المحل أنا وأهلي وإخوتي، وطبعاً الجيران من يقدر منهم كان يختبئ ومنهم من يهرب ومنهم من كان في المظاهرات. خفت من كل يوم جمعة، من اليوم السابق كنا نخاف أنا وعائلتي كثيراً، كلنا خفنا.

بعد أن بدأت الحملة عندنا في التضامن بدأ تدمير البيوت وهاجر أهالي الحي إلى أماكن أخرى. منهم من ذهب إلى إدلب ومنهم إلى الدير أو إلى مخيم اليرموك في دمشق. كل سكان المنطقة هاجروا بسبب القصف والاعتقال والتدمير. وضعوا ألغاماً في البيوت بيتاً بيتاً وهدموها. كنت من اللجنة التي ذهبت إلى المحافظة لطلب إيقاف الهدم. كان معنا من الجيران خمسة عشر شخصاً. ذهبنا إلى محافظ ريف دمشق، كان وقتها حسين مخلوف قبل أن يصبح وزيراً للإدارة المحلية، قابلناه وكان جوابه أن الهدم مستمر حسب القانون رقم 10 القاضي بإزالة العشوائيات. كنا نتبع بلدية يلدا رغم أن الخدمات سيئة جداً. طيب كيف يكون الحي عشوائياً مع أننا نتبع لبلدية والبلدية تتبع لناحية والناحية لمحافظة والمحافظة تابعة للدولة؟!!
اشتدت الأحداث. صارت الدبابات تقصفنا من ثلاث جهات وهرب الناس حفاة من بيوتهم؛ من ترك طعامه على النار ومن ترك «مونته» في البراد ومن ترك كل شيء يملكه. صرنا نركض هاربين واستقبلنا أهالي مخيم اليرموك ومخيم فلسطين المجاورين الشعبيين بالسيارات البسيطة وأخذونا إلى بيوتهم. بعض جيراننا سافروا مباشرة إلى محافظات أخرى.

بعد ذلك غادرنا مع جيران لنا من الدير في باص جاء وأخذنا الساعة الثانية ليلاً إلى دير الزور. كان شعوراً صعباً جداً. تقريباً في الشهر السادس من عام 2012، في اليوم الذي وقع فيه تفجير خلية الأزمة، هاجر الكل من الشام وهجرنا حي التضامن. تركنا كل شيء وراءنا ولم نأخذ من بيوتنا ولا حتى إبرة؛ بيتي وبيت أهلي وبيت أخي الممتلئين بكل شيء.

جئنا إلى دير الزور وبقينا مدة طويلة دون بيت، لا نملك بيتاً هناك أصلاً. عائلتنا مؤلفة من أربعين شخصاً تقريباً، من والدي وحتى أصغر من فيها أولاد أخي. توزعنا بين أقربائنا، وسكنّا في مدرسة في القرية وصرنا نتردد على أقاربنا، كل يوم عند أحدهم حتى سافر والدي إلى الشام.

بقينا حوالي الشهرين نذهب ونعود لكننا لم نستطع أن ندخل الحي. أشيع بعدها أنهم يسمحون للناس بدخول منازلهم ليأخذوا أغراضهم وأوراقهم الشخصية بعد إذن من الحاجز الموجود هناك أو من اللجنة الأمنية. سمع والدي بهذا. وفي اليوم الذي سافرت فيه إلى لبنان علمت أنه سافر إلى الشام ليأخذ إذناً بدخول البيت. اتصلت به قبل أن أصل إلى لبنان، كانت الساعة العاشرة صباحاً، وسألته عن مكانه فأخبرني أنه أخذ السماح من شارع نسرين القريب من حيّنا والذي كانت توجد فيه اللجنة الأمنية والشبّيحة. يومها كان العميد عصام زهر الدين هو المسؤول عن الحيّ. انقطع الاتصال مع والدي وأنا أتكلم معه ولم أعرف السبب، بعدها علمت أنهم اعتقلوه في المكان نفسه.

تم اعتقاله بجانب البيت ومعه مجموعة كبيرة من الجيران حسب ما أخبرني أحد الأشخاص الذين كانوا موجودين لكنه هرب ونجا. التقيت به في ما بعد وسألته: كيف صار معكم؟ بعد أن سمعت الكثير من الأخبار؛ منها أن اللجان الشعبية أخذت والدي، أو فرع فلسطين، يمكن الفرع 215، أو الفرقة الرابعة. سمعت الكثير من الأقوال لكن بعد أن التقيت بهذا الشخص أخبرني أنه كان موجوداً مع والدي لحظة اعتقاله، وبتأكيد من شخص آخر كان مختبئاً في أحد البيوت أن عناصر من شارع نسرين يرتدون الزي العسكري، وعلى الأغلب من النظام، اعتقلوه. لم أعرف أنه معتقل إلا بعد ثلاثة أيام. كان مختفياً فأحسست أنهم اعتقلوه. سافرت فوراً بتاكسي في السادسة صباحاً من بيروت إلى الشام. صرت أبحث عن طريق معارفي، بما أنني كنت موظفاً ومعي بطاقة الصراف التجاري التي تثبت ذلك. في ذلك الوقت كانت ما تزال هناك تزكية خاصة للموظفين، موظف يعني مع النظام. ذهبت إلى شارع نسرين ودفعت رشاوى وسألت عن والدي.

قال البعض إنه في فرع فلسطين، وغيرهم قالوا إنه ليس عندهم بل مع المسلحين فقد أخذه الجيش الحر. استمر بحثي ثلاثة أشهر تقريباً. كنت أسهر مع خالي ونتكلم. كان خالي يقول: «والدك ما عليه شي. خدم بالجيش خمسة وتلاتين سنة وهلق متقاعد ما عليه شي. بكرا بيعرفو إنو ما عليه شي وبيطلع». اعتقلوا خالي نفسه في الشهر العاشر، لم أعد أتذكر التاريخ، فسافرت بعدها إلى الدير وقد قطعت الأمل. كان خالي عامل خردة. يملك «طريزينة» بثلاثة دواليب. يخرج في السادسة صباحاً ليجمع الخردة ويرجع في الثانية عشرة ليلاً. كان نازحاً معنا في بيت عمي أيضاً، فالبيت الذي كان يستأجره كان في حي التضامن، وكنا نلتقي يومياً حتى اعتقلوه يوم وقفة عيد الأضحى في الساعة الثانية عشرة بجانب البيت. نادى عليه بعض العساكر وطلبوا هويته، ولما وجدوا أنها مكسورة قالوا إنهم سيتأكدون منها. لحقت ابنته به وطلبت منهم أن يتركوه لكنهم لم يقبلوا. قالوا إنهم سيتأكدون من شخصيته وسيتركونه إذا لم يكن مطلوباً لأي سبب. عمره ستون عاماً ومع ذلك أخذوه. تسللت مع أحد الجيران بهدوء وسحبنا «الطريزينة» ووضعناها بجانب البيت. ومنذ ذلك اليوم ذهب ولم يرجع. كنت أنا أول من تعرف عليه في صور قيصر، أخبرت أهله وأعلنّا وفاته وأقمنا له مراسم عزاء.

اعتقلوا الكثير من الجيران. إحدى بنات جيراننا اعتقلوها من الجامعة وحتى اليوم لا يعرف أهلها عنها شيئاً، صبية من الجامعة اعتقلوها. اعتقلوا أيضاً أحد الجيران رغم أنه عاجز ويتنقل على موتور كهربائي. واحد غيره من جيراننا تمت تصفيته بجانب بيته هو وابنته وابنه. كل الناس يعرفون أن تسعين في المائة من المعتقلين تم اعتقالهم على الحواجز، أو الفرن، أو الجامع، أو الحواجز الحدودية أثناء دخولهم. أكثر من تسعين في المائة اعتقلوهم بسبب صورة أو أغنية وجدوها على الموبايل. ربما بسبب طول الشعر، أو الوسامة. اعتقل الكثيرون دون سبب. أو بالتهمة التي ليس عندنا في سوريا غيرها وهي تشابه الأسماء، أو التهمة التي صنعوها وهي كسر الهوية بعد أن كسروا هوياتنا الله لا يسامحهم.

بحثت عن والدي كثيراً. سألت كثيراً. دفعت الكثير. كلما سألت أحداً يطلب أن أدفع، يقول: «عطيني أربعة آلاف أو خمسة، لاقيني بالكافيتريا الفلانية، ادفع حساب الطاولة». دفعت مبالغ كبيرة لكني لم أستفد شيئاً، حتى وصلت لبعض عناصر الأمن الذين ادعوا أن والدي موجود عندهم وطلبوا مني مبلغ ثلاثمئة ألف ليرة، وطلبوا ملابس له بحجة أن ملابسه ممزقة. استدنت من أقاربي في دير الزور، أرسلوا المبلغ عن طريق مكتب تحويل واستلمته. اتفقت مع هؤلاء العناصر أن ألتقيهم عند مبنى مشفى دار الشفاء على أوتوستراد العدوي في الساعة العاشرة صباحاً. أخذت ابن عمي معي وقلت له: «خليك بعيد عني لإنو ممكن يعتقلوني مشان تعرف»، وفعلاً بقي بعيداً حوالي مائة متر. أحضرت المبلغ واشتريت ملابس لأبي وعلبة «حمرا طويلة» فقد كان يحب التدخين وقلت إنه سيكون مشتاقاً ليدخن عند خروجه. أتت سيارة فخمة نسيت نوعها، ونزل منها أربعة عناصر مسلحين، أحدهم ضخم يبدو أنه المسؤول عنهم. لم أعرف رتبته ولم أعرف إذا كان عسكرياً أم مدنياً، لكنهم على الأغلب يتبعون جهة أمنية. في ذلك الوقت من عام 2012 لم يكن أحد يحمل سلاحاً إلا من يتبع للدولة. أخذوا مني كيس الملابس (كلابية وشماغ وشحاطة) وعلبة السجائر. سلمته المبلغ وطلبت أن يعدّه فقال لي: «لا، معدودين». سألته عن والدي فقال أن أنتظره في ساحة العباسيين في الساعة السادسة مساء. استصعبت الذهاب إلى مخيم اليرموك البعيد حوالي النصف ساعة. خفت أن أذهب ولا أرجع ولا أرى والدي، لشدة ما كنت متفائلاً وعندي أمل برؤيته. أخذت تاكسياً وذهبت إلى ساحة العباسيين منذ الساعة العاشرة صباحاً. صارت الساعة الثانية، الثالثة، الرابعة، وابن عمي يقول لي: اتصل بهم. قلت له: «عيب، ما بصير. وعدونا الجماعة الساعة ستة». كنت خائفاً على مشاعرهم مثل خوفي على مشاعر أهلي الذين كانوا يتصلون بي كل دقيقة ويسألون: «وينه؟ ما طلع؟» وأنا أقول لهم: «إن شا الله رح يطلع». يقولون: «حكيت معه؟ اتصل عليك؟». أقول لهم: «لا، بس إن شا الله جاي». صارت الساعة الخامسة، السادسة، طلب ابن عمي أن أتصل بهم ورفضت، قلت له: «لا، عيب. منستنى خمس دقايق. كمان يعني ممكن اتصال يخرب على والدي». صارت الساعة السادسة وعشر دقائق واتصلت بهم فقالوا إنه حدثت اشتباكات ولهذا تأجل الإفراج إلى صباح الغد. اتصلت في التاسعة صباحاً من اليوم التالي فكان الخط مغلقاً ولم يعد أحد يرد بعدها. عرفت أنهم احتالوا عليّ.

أحسست أنني كُسرت، وإلى اليوم لا أزال مكسوراً. لم أحزن على المبلغ الذي خسرته. كانوا صادقين معي في أمر واحد فقط وهو أن والدي كان بلا ملابس. وفعلاً عندما رأيت صور جثته في ما بعد كان دون ثياب. سمعت بعدها قصصاً كثيرة بما أنني لاحقت قصص المعتقلين. أخبرتني إحدى النساء أن ابنها كان في القفص. كانوا يحضرون المساجين في القضاء العسكري في قفص، خمسة أو ستة أو سبعة يرتدون «الشيال» فقط ويشبهون بعضهم كثيراً، والطاقة مثل الشبك «أي واحد بدخل بتقول هاد ابني». قال لها النصاب: «ليكي ابنك من الشبك»، فقالت له: «شفتو ابني»، لكنه لم يكن ابنها. لم أكن الوحيد الذي نصبوا عليه، جرى هذا مع الكثيرين. حتى هنا في تركيا تعرضت لمحاولة نصب، اتصل بي أشخاص قالوا إن أبي في سجن السويداء ويحتاج تحويلاً إلى المشفى وطلبوا أن أدفع لهم أربعمائة ألف ليرة. صرت أكثر حذراً بعد المرة السابقة وطلبت منهم أن يرسلوا لي صورة له أو تسجيلاً بصوته أو أي شيء يثبت أنه موجود فعلاً لأرسل لهم المبلغ. قلت لهم: «أنا ابن عشيرة. بتلفون واحد ممكن أي مبلغ تطلبوه مني أبعته دبل، يعني تطلبوا مني مليون أبعت مليونين، بس بدي شي أكيد». اتصل بي كثيرون وكانوا يكذبون علي؛ من قال إن والدي يلزمه تحويل إلى المشفى؛ سيخرج في الغد؛ غداً نحوله إلى المحكمة؛ غداً نخلي سبيله. عندي الكثير من محادثات الماسنجر. وصل الأمر بأحدهم إلى درجة أنه اتصل بي بعد أن رأيت صور أبي ضمن صور قيصر ليقول لي إنه سيدلّني على قبره مقابل سبعمائة ألف ليرة! استغلوهم حتى بعد وفاتهم، تاجروا بدماء شهدائنا. لا تلوموني أنا أو غيري لأننا وقعنا ضحية للنصب. ما زلت حتى اليوم على استعداد للدفع إذا أتاني من يطلب. مرة سمعت قصة أحدهم الذي قال إنه خسر ابنه لأنه لم يدفع. «يعني نتحمل مسؤولية إنو انتصب علينا ولا نتحمل مسؤولية إنو ليش ما دفعنا».

كنت أبحث عن والدي بين الشهر التاسع ونهاية العام 2012. لم أكن أقدر على دخول حي التضامن؛ فاضطررت للنزوح إلى جامع عبد القادر الحسيني في شارع لوبية التابع لمخيم اليرموك. نزحت إليه مع بيت عمي وكثير من العائلات. أقمنا ضمن الجامع، ننام فيه ونأكل ونشرب. وكنا نخرج بين المغرب والعشاء لشرب الشاي على باب الجامع. في أحد الأيام كنا حوالي خمسة عشر شخصاً فجاءت مجموعة، من عشرين شخصاً تقريباً، واعتقلونا من باب الجامع وأخذونا مطمشين. مشينا لنصف ساعة تقريباً. لم نعرف إلى أين أخذونا إلا بعد أن كشفوا عن أعيننا فرأيت علم فلسطين يرفرف على الطاولة. عرفت أننا عند فصيل فلسطيني اسمه الجبهة الشعبية القيادة العامة التابعة لأحمد جبريل الذي اختار أن يكون مع النظام. اعتقلونا لست ساعات

ثم توسط لنا إمام الجامع، الذي توفي لاحقاً يوم قصف الطائرة للجامع يرحمه الله، كان هو من أخرجنا بحجة أننا أهالي مدنيون ولا علاقة لنا بالمسلحين. أفرجوا عنا الساعة الواحدة ليلاً بعد أن حققوا معنا. لم يضربوني أبداً «ولا كف»، لكنني سمعت أصوات نساء تتعذب عندهم.

بعد اعتقال والدي عمل أحد إخوتي في حراقات النفط في دير الزور وأعطاني مبلغاً فاشترينا أرضاً صغيرة مساحتها ثلاثمئة متر في قرية جديد بكارة، وبنينا غرفة واحدة سكنا فيها، كنا أربعون شخصاً. بقينا فيها حوالي السنة، حتى عام 2014، حين أتت داعش وعدنا للنزوح. كانت معاناة صعبة فبعد استقرارنا هنا غادرنا مرة أخرى. نزحنا حوالي الشهر ونصف إلى قرية البوليل التي تقع مقابلنا في منطقة الشامية، بيننا نهر الفرات فقط الذي قطعناه بالقوارب. نزحت النساء والأطفال وبقيت مع إخوتي. وصلت الاشتباكات إلى كل القرى وجاءنا الدور. عشنا أياماً صعبة. رأينا كيف قتلوا الناس، قتلوهم في المدارس، عائلة بأكملها من تسعة أشخاص قتلهم الدواعش في المكان نفسه. قتلوا أيضاً أبناء عمي وزوج ابنة عمي قتلوهم في الرابعة صباحاً، وعدنا في السادسة صباحاً إلى المدرسة وأخذنا الجثث. أحدهم كان ما يزال به رمق لكنه توفي على الطريق في السيارة. لم ننقلهم إلى المقبرة بل دفناهم سريعاً في منطقة قريبة من الفرات. بعدها، عندما عدنا من قرية البوليل، نقلناهم إلى مقبرة نظامية. بقينا نشاهد الاشتباكات وإطلاق النار حتى تبين أن الدواعش سيطروا على كل شيء بما فيها المنطقة التي سكنا فيها، وأعادونا إلى جديد بكارة بعد إجراء تسوية للجميع. منهم من طلبوا منه تسليم سلاح ومنهم من طلبوا منه مبلغاً مالياً.

سمعت أن الدواعش كانوا يقطعون رؤوس من عليهم قصاص. كنت أخاف كثيراً من هذا الموضوع ولذلك قررت أن لا أذهب إلى الطريق الرئيسي عند البلدية حيث جرى القصاص إلا بعد مضي ثلاثة أيام. سمعت أنهم يبقون الجثث معلقة لثلاثة أيام. لم أخرج من البيت إلا بعد مضي هذه الأيام، ثم خرجت لأحضر مواد غذائية وأدوية، لأكتشف أنهم استمروا بتعليق الجثث لأكثر من ثلاثة أيام ورأيتهم. ثلاثة جثث معلقة على عامود، رؤوسهم مقطوعة وموضوعة بين أرجلهم. فقررت أنني لن أبقى دقيقة واحدة هنا وسأسافر إلى تركيا.

غادرت باتجاه معبر باب السلامة يوم 28/12/2014، ومع بداية 2015 كنت في تركيا. كانت الأمور سهلة أيامها فلم يكن هناك جدار، كانت توجد حفرة علينا قطعها. دخلت تركيا عن طريق التهريب أنا وزوجتي وأولادي. أتت معنا أختي وأولادها وزوجها ابن عمي في اليوم نفسه. بقيت أمي وإخوتي في البلد ليعود ويلحق بنا اثنان من إخوتي. نحن مشردون اليوم؛ أختي في لبنان، أمي في سوريا، أنا في تركيا، أختي الثانية بعيدة. تفرقنا مثل كل العائلات. كنا عائلة سعيدة جداً، لكن والدي هو من كان يجمعنا مثل المسبحة، «ولما راح فرطنا».

رغم خروجي من سوريا عاهدت نفسي أن أستمر بالبحث عنه. والحمد لله توصلت إلى نتيجة ووصلت صورته إلى برلين وتم عرضها في الفعالية الأخيرة بمناسبة يوم الاختفاء القسري. استشهد والدي في السجن لكني فخور به. بعد أن عيّرتني أختي بأنني لم أفعل شيئاً بقيت أتابع حتى سمعت عن صور قيصر المسربة، فبحثت فيها لثلاثة أشهر في السنة الماضية حتى وجدت صوره. في البداية وجدت صور خالي وبعدها صور والدي. تنقسم صور قيصر إلى ملفات؛ مثلاً الفرع 215، الفرع 227، فرع أمن الدولة، فرع فلسطين. تختلف صورة والدي عن صورة خالي. صورة خالي في ملف الفرع 227 أما صورة والدي فكانت في ملف اسمه مجهول الفرع. لا أعرف السبب، فهو على الأغلب كان معتقلاً في أحد الأفرع الأمنية لكني لم أعرف في أي فرع. من الممكن أنه كان عند اللجان الشعبية وتم بعدها تسليمه للنظام، يعني قد يكون توفي عند اللجان الشعبية أو في أحد الأفرع.

عندما وصلنا إلى تركيا كان وضعنا المادي سيئاً وحالتنا النفسية متعبة كثيراً. لم نكن نعرف شيئاً عن تركيا؛ لا العادات ولا طريقة العمل. لم نجد عملاً لأننا لم نكن نعرف. بالنسبة لي ما زلت حتى اليوم لا أعرف وإلا لكنت تدبرت أموري. أول من وصلوا إلى تركيا استأجروا خيماً أو محلات. لم يكن معنا ما يكفي لاستئجار بيت فأقمنا في دكان مع بيت أختي وعائلة أخرى من أقاربنا. كان وضعنا سيئاً إلى درجة أننا اضطررنا للسكن في دكان له «درّابية» وكل عائلة اقتطعت زاوية لها بستارة، كنا تقريباً من ثلاثين إلى أربعين شخصاً في الدكان، وبقينا فيه حوالي ثلاث سنوات. نعيش الآن في بيت بغازي عينتاب، أنا وزوجتي وولداي؛ صبي عمره ست عشرة سنة، وبنت عمرها أربع عشرة سنة. سجلتهم في المدرسة.

وضعي النفسي لا يساعد على العمل حتى اليوم، فاضطررت لأن أجمع الخردة لنعيش. وبسبب قرارات الهلال الأحمر التي لا أفهمها لم نكن نحصل على المساعدات؛ العائلات المكونة من أربعة أشخاص لم يعطوهم «كرتاً أحمر». بقينا على هذا الوضع حوالي الخمس سنوات، الكل يحصل على المساعدات إلا نحن، حتى ذهبت إلى مدير الهلال الأحمر في غازي عينتاب وتكلمت معه وشرحت له ماذا أعمل، وبعد أن رأى الموتور والعربة وتأكد من سوء وضعي أعطاني استثناء. بعد خمس سنوات وافقوا على إعطائي الكرت الأحمر وصرت أحصل على المساعدات.

بالتأكيد كل سوري هنا تأثر بموضوع الكورونا ولست أنا فقط. وحتى قبل كورونا، البلد ليست بلدنا وليس بمقدورنا أن نتكيف معهم بسهولة. نعاني من صعوبة في موضوع التعليم. أولادي يعرفون العربية، تعلموا هناك لسنتين وكنت أتابعهم. لكن هناك الكثير من الأطفال لا يعرفون اللغة العربية؛ لا يعرفون كتابة حرف واحد بها ولا حتى أسماءهم. لماذا لم تدرج الحكومة التركية اللغة العربية في مناهج التعليم؟ نحن لن نظل هنا دائماً، يسمّوننا ضيوفاً أو لاجئين، فلماذا لا يعلمون أولادنا لغتنا مثل دول أخرى؟
ألاحق موضوع المعتقلين منذ عام 2012، مما أثر على صحتي ونفسيتي. أعاني القلق منذ سنوات؛ ينام الجميع وأبقى مستيقظاً حتى الفجر أفكر. عانيت القلق والتوتر وقلة العمل. حتى مواعيد العمل أخلفت بها؛ «أكون مواعد أحد الناس على عمل ببناء أو غيره، يجي الصبح يدق عليّ يكسّر الباب ما أطلع. أنا سهران طول الليل كيف بدي أروح أشتغل؟». انتهت علاقاتي الاجتماعية مع الناس بسبب التفكير. صار ضغطي غير منتظم، يرتفع ويهبط، لدرجة أنني وقعت في أحد الأيام على الأرض وأتت سيارة الإسعاف وأخذتني من جانب البيت. أغمي عليّ وأصبت في رأسي لكني شفيت الحمد لله.

كانت أموري صعبة جداً حتى انتسبت لرابطة عائلات قيصر وأخبروني عن مركز العائلة. آتي إلى المركز منذ ثلاثة عشر شهراً، منذ آب من السنة الماضية آتي بشكل أسبوعي تقريباً. في بعض الأحيان أمرّ إلى المركز لأسلم عليهم حتى لو لم تكن عندي جلسة. استفدت منهم كثيراً، على الأقل في موضوع النوم والقلق والتوتر. صرت أعرف كيف أنام وكيف أفضي بمشاكلي وبكل ما أفكر به. تحسنت بنسبة أكثر من سبعين في المائة.

كنت كلما سمعت بمنظمة أذهب لأراجعها بشأن والدي. ذهبت مرتين أو ثلاثاً للأمم المتحدة فكانت حجتهم أن موضوعه ليس من صلاحياتهم، لو أنه معتقل ضمن تركيا يمكن أن يسألوا عنه. قدمت طلب بحث عنه في الهلال الأحمر مدته خمس سنوات. انتهت مدة الطلب الأول وجدّدته.

كان أكثر ما يؤثر بي وأنا أبحث عنه هو هل كان ما يزال حياً أم ميت؟ والآن أكثر ما يمكن أن يعالجني، بعد أن عرفت باستشهاده في سجون النظام، أن أعرف أين قبره، وقتها قد أرتاح مائة بالمائة. لا أتكلم عن نفسي فقط بل عن كل المعتقلين أو الناجين، نحن نعاني من الخذلان. نحتاج أحداً يسمعنا، يوجهنا، يهتم بنا، نحتاج من يؤمّن لنا فرصة عمل. لو كان عندي عمل رسمي ألتزم به، ولو حارس أمسح وأنظف، لكنت مرتاحاً. لم أؤمّن شيئاً لأولادي لأنني بلا عمل.

اليوم كل العالم خذلنا؛ المجتمع الدولي خذلنا والدول العربية خذلتنا. عندما ذهبت إلى دير الزور لزيارة أهلي، منذ شهرين في العيد، رأيت كيف أن المعارضة في مناطق سيطرة أميركا تهرّب المازوت، تهرّب الطحين، تهرّب السكر إلى النظام بعلم الإدارة الأميركية، فالطائرات كانت تمشط نهر الفرات وتشاهد صهاريـج المازوت المهرّبة إلى النظام.

يجب أن تكون هناك عدالة ومحاكم دولية حتى لا يتكرر ما حدث معنا. يجب أن تتم محاسبة المسؤولين حتى لا يتكرر كيماوي الغوطة ولا صور قيصر. أريد أن يعرف العالم أننا، نحن السوريين، قد ظُلمنا. نحن لسنا متسولين أو باحثين عن المعونات. كنا نعيش في بيوتنا معززين ومكرمين وعزيزي النفس، وحتى اليوم ما نزال عزيزي النفس لكنه وضع سيئ فرض علينا.

بخصوص قضية المعتقلين إن شاء الله سيأتي يوم وتظهر الحقيقة ويتغير كل شيء. بعد أن سُجن سيدنا يوسف لسنوات استدعى الملك النسوة ليعرف القصة. ناداهن وسألهن لماذا قطعن أصابعهن يوم الحفلة؟ فقلن له: «والله ما شفنا من يوسف أي سوء»، ونطقت زليخة أمام كل الناس وأمام وجهاء مصر وأشرافها: «الآن حصحص الحق». يعني سيظهر الحق لو بعد سنين. وإن شاء الله سيأتي يوم ويبيّن كل شيء. إن شاء لله سيأتي يوم لا يبقى معتقل في السجن.

رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison

جميع الحقوق محفوظة ©

info@admsp.org
www.admsp.org